على ذكر الانتخابات الالمانية

هندنبرج

عملاق الحرب والسلام

خطب مسيو كايو منذ أسابيع ، وهو كما تعلم وزير فرنسا المالي ، فقال بان فرنسا في مركز مالي خطير وان ميزانية الدولة الفرنسوية ستصادف في آخر السنة الحالية عجزاً عظيماً . فاذا كانت هذه هي حالة فرنسا التي تعتبر خزانة الذهب في العالم بعد الولايات المتحدة الاميركية ، فكيف ببقية الدول ، وعلى الاخص المانيا ، بعد ان توقفت عن دفع التعويضات وبعد أن نشطت فيها روح الاشتراكية نشاطاً استطاع به زعيمها «هتلر» ان ينافس رجل المانيا العظيم المارشال « پول فون هندنبرج». لعل الناس لايعرفون عن هذا الرجل العظيم الاّ انهُ رسول الحرب والجلاد ، ولعلهم فوق ذلك يرون فيهِ رجلاً لم يمرّن على مواجهة الحكم المدني في بلاد كالمانيا أكلت الحرب فيها الاخضر واليابس ، واحتلتها الدول بمعاهدة « فرساي » خمسة عشر عاماً وتركت اهلها في احط دركات الفقر والخصاصة

انتخب الفيلد مارشال هندنبرج رئيساً للجمهورية الالمانية في ٢٦ أبريل ١٩٢٥ . واليوم وهو في الخامسة بعد الثمانين من عمره ، لا يكتفي بان يكون رئيساً للجمهورية ، بل يأخذ بضلع كبير في معالجة أمور المانيا الداخلية والخارجية . وعلى الرغم من ان الهرم قد كتب على جثمان ذلك الرجل العظيم بعض آياته ، كانحناء قليل في اعلى كتفيه ، وتقوّس في رجليه لايكاد يراهُ الاّ المدقق ، فانه لا يزال عملاقاً كما كان ايام الحرب ، طويل القامة ، عظيم الهامة ، عبوساً لا يبتسم . وعلى الرغم من انه لم يُرَ مرة منذ أن وضعت الحرب العظمى اوزارها في بزته الحربية ، فانه لا يزال يلوح في كل جزء من اجزاء جسمه ، وكل لمحة من لمحات خلقه ونفسيته ، هندنبرج القائد العام لجيوش المانيا أيام الحرب ، ويد القيصر اليمنى . ثم انه لا يزال هو بذاته هندنبرج الهرم العجوز . لم يتغير فيهِ شيء ، منذ عقد الهدنة سنة ١٩١٨ حتى الآن . عقد ونصف عقد من السنين المثقلة بالهموم ، المليئة بالاحزان والمخاوف ، المحفوفة بالمخاطر والاوهام ليست كافية لان تغير في هندنبرج شيئاً ما . فهو اليوم ، وقد كاد يختم منتصف العقد التاسع من العمر ، كما كان في ختام العقد السابع من حياته

نعم لم يتغير هندنبرج . ولكن العالم كله قد تغير . حتى الفكرة التي قامت من حوله في اذهان اهل أوروبا قد تغيرت تغيراً كلياً . فقد خيل الى اوروبا لما انتخب عملاق الحرب ، ورجل الامبراطورية العسكرية ، رئيساً للجمهورية ، ان الحرب لا بد واقعة ، وان انتخاب الرجل انتصار للحزب العسكري الامبراطوري . ولكن هندنبرج لم يكن ليعرف القيصر على انهُ غليوم هوهنزلرن بل كان يعرفهُ اولاً على انهُ قيصر المانيا . اما وقد زال القيصر وزالت القيصرية ، فان المانيا باقية لا تزول . والمانيا دائماً فوق الجميع

اذا قلت هندنبرج ، فكأنك كنت تقول العسكرية الالمانية . كان اسمه علماً على الروح العسكرية وعلى الولاء المفرط لملاك الحرب غليوم الثاني . فلما وضعت الحرب العالمية أوزارها بعد أن تغلب الحزب الاشتراكي الالماني مغنماً بوعود ولسن ، ظهر اسم هندنبرج بعد اسم الامبراطور مباشرة في الجدول الاسود المحتوي على اسماء مجرمي الحرب الذين اراد الحلفاء ان يحاكموهم . لم يسبقه في الترتيب الا صاحب الجلالة الامبراطورية

في ختام سنة ١٩١٤ كان هندنبرج في الاستيداع مقيماً في بيته بهانوفر . فلما اعلنت الحرب اخذ على عاتقه قتال الروسيين في الميدان الشرقي . ولقد ظن العالم بعدئذٍ ان حياته الحربية قد اختتمت في سنة ١٩١٨ ، بعد ان قاد جيوش المانيا مقاوماً بها اكثر من خمس وعشرين دولة من دولات الارض بما لديها من معدات ومستعمرات وموارد . في حين ان المانيا كانت محصورة من جميع جهاتها براً وبحراً وجواً ، واحاط بها الاعداء من كل جانب كما يحيط السوار بالمعصم

فلا عجب اذا تلبدت سحب الشك والخوف في سماء اوروبا عند ما رُشّح عملاق الحرب ليكون رئيساً للجمهورية الالمانية . فقد رأوا في المانيا الجمهورية وعلى رأسها هندنبرج ان خطراً يهدد سلام اوربا المنهوكة المكدودة ، وتخيلوا ان صولجان العسكرية الالمانية اخذ يرفع رأسهُ المخوف في جو الدنيا مرة اخرى . ورأى آخرون ان المانيا التي صدمت الى النظام الجمهوري زهداً في العسكرية والحرب وبغضاً في من كانوا سبباً في بثّ هذه الروح ، سوف تنسى مشتاتها دراكاً وتجنح بعد قليل الى فكرة الانتقام من الحلفاء ، فتدق الساعة ، وتأكل المدنية نارُ الحروب

وكان من اول المؤيدين لهندنبرج في الانتخاب الاول الاميرال فون « تربتز » منظم حرب الغواصات ، ورمز الروح العسكرية الالمانية ، فوق البحار ، كما كان هندنبرج رمزها فوق الارض . ولا شبهة في ان « هندنبرج » يؤيده « تربتز » لا بد من ان يترك في نفسية الشعب الالماني اثراً ، يملأ شعوب الاحلاف وهماً ونكداً . حتى لقد اعتقد كل المشتغلين بالسياسة الدولية في انجلترا وفرنسا وايطاليا واميركا : أن ترشيح هندنبرج خطوة اولى لرجوع

آل هوهنزلرن الى اعتلاء عرش المانيا، او على الاقل لتنصيب اسرة اخرى من اسر المانيا الملوكية

ولقد اتفق الرأي على هذا . ففاضت به صفحات الجرائد والمجلات ، وترددت به اعواد المنابر وجنبات المجالس النيابية. ولما اخذ العالم الذهول بعد ان هزم المارشال هندنبرج منافسه الدكتور «ولهلم مركس» وهو احد غلاة الجمهوريين، وواجه العالم كلّهُ رئيساً ثانياً للجمهورية الالمانية ، اخذ الناس في جميع اقطار الارض وعلى رأسهم جمهوريو المانيا انفسها يتنعون الحرية ومضوا في رثاء طويل يندبون به آخر ظل للديمقراطية فوق الارض

اما اذا قارنت بين النغمة التي ضربت عليها الصحف والمجلات في ذلك الحين ، وما تكتبهُ الآن : لأخذك العجب. لم تؤيد صحيفة واحدة من صحف الدنيا المارشال هندنبرج سنة ١٩٢٥ ولا تكاد تجد الآن صحيفة واحدة في ركن من اركان الدنيا الاربعة ، لا تؤيد المارشال هندنبرج سنة ١٩٣٢ . والواقع ان انتصار هندنبرج على الدنيا في ميدان السياسة المدنية ، يطبق لمعان ذلك النجم الذي تألق في سمائه ابان حياته الحربية

كتبت احدى صحف امريكا العظمى عند ما اعلن انتصاره سنة ١٩٢٥ ما يأتي:

« نجح هندنبرج ، وهزم العسكريون الالمانيون ، جمهوريي المانيا . لقد تركت المانيا الجديد لتنظر الى القديم » . وكان هذا احسن تعبير عما انطوت عليه قلوب الجمهوريين في المانيا وكل محنك بالسياسة الدولية في روما وباريس ونيويورك ولندن

وقالت جريدة اميركية اخرى : « لقد قالت المانيا كلمتها . وبعد ان خيل للعالم ان المانيا قد انتفعت بالدرس الذي تلقتهُ بالهزيمة في ميدان الحرب وبعدت عن فكرة اخضاع العالم بالقوة أخذ رأس التنين المزعج يرتفع مرة اخرى بعد ان ظن في المانيا زعيمها الحربي واوسع رجال العالم مطامعَ ، ليكون رئيساً لجمهورية المانيا »

ولم يكن الشعور في اوربا ازاءه أقل منهُ في امريكا. فان مسيو «بريان» وزير فرنسا المعروف — وكان لما بلغته اخبار انتصار هندنبرج، وكان قد اخذ يصل في نطاق واسع لبعيد السلام الى أوروبا ويقيمه على قواعد ثابتة — هز رأسه في تشاؤم قائلاً ان أوروبا سوف تضطر الى الرجوع مرة اخرى الى السياسة القديمة ، سياسة السلم المسلح ، الذي لا يخرج في مدلوله عن الاستعداد للحرب بأوسع ما يمكن ان يصل اليه مجهود الدول، لتكون على اهبة لها تخوض غمراتها في طرفة عين

وقالت جريدة فرنسية شبه رسمية — ان انتخاب هندنبرج رئيساً للجمهورية في المانيا ، ليس الا تحدياً صريحاً للحلفاء ، بل ولامريكا وأوروبا كلها » — « والحقيقة ان لبس ثوب هذا الشيخ الذي عاد الى الميدان من عزلته في «هنوفر» هو الذي يزعجنا . انها قوى الرجعية والانتقام الوحشيّ ، هي التي تراها مختفية وراءه ، تعمل على تعجيل الساعة التي تصبح فيها المانيا قادرة على حمل السلاح وخوض غمرات الحرب مرة اخرى» . وكذلك كان الحال في ايطاليا .

فان فوز هندنبرج للرآسة ، ومن ورائه شيخفون «ريتز» ملأ ايطاليا غمًّا وفزعاً . اما كيف انقلبت آية الافكار في أوروبا على اثر انتخابه من امل في السلام العالمي ، الى عقيدة راسخة في احتمال وقوع الحرب في كل أزمة دولية ، فلا ادل عليه من كلمات تضمنها مقال لجريدة التيمس :

« نريد ان نذكر المعجبين بشخصية هندنبرج أن هزيمة الدكتور ماركس ، ليس معناها ان المارشال « فوش » قد خرج من الميدان »

مع هذا ، وفي أول دورة رآسة هندنبرج ، لم ترتفع الا بضعة اصوات ظهرت خافتة ضعيفة في المانيا وممالك اخرى ، تحاول ان تخفف من وطأة الحادث وتهدىء شعور الفزع والخوف وقلة الثقة الذي سيطر على النفوس بعد فوز عملاق الحرب ليكون على رأس جمهورية السلام . ولقد دلّوا بهذا على انهم اعرف بطبيعة المارشال على رأس جمهورية المانيا ، من كل اهل أوروبا واميركا ، وانهم كانوا اصحّ حكماً على ما سوف يتمخض عنه انتخاب هندنبرج رئيساً للجمهورية الالمانية

قالوا ان الشيخ العظيم قد اقسم يمين الاخلاص للجمهورية قاصداً ما يقول ، عارفاً بما يحوم حوله من الشكوك والاوهام قائماً بان الحرب لا يعقبها الا السلام ، لتعمر المانيا ويعمر العالم . اما وانه اقسم فانه لا يحنث بقسمه . وانه سوف يخدم الجمهورية بولاء لا يقل عن ولائه للامبراطورية تحت لواء هوهنزلرن . اعتقدوا بان هندنبرج لن يعمل على اعادة الملكية في المانيا . قالوا احترسوا للذين اخذهم الفزع . وقالوا انتظروا للذين شكوا . ومضت أوروبا واميركا على حذر واحتراس ، وانتظر الناس ما سوف تنجلي عنه الايام

ولم يتوان المارشال الكبير في ان يحقق نظر الذين حاولوا ان يطمئنوا ويعيدوا الثقة بالمانيا . على ان متطرفي الحزب الملكي في المانيا قد اظهروا الغضب والحزن . ذلك لانهم رأوا ان هندنبرج اخذ يعمل على تثبيت قواعد الجمهورية بدل ان يضع تحت اساسها الالغام كما ظنوا انه سوف يفعل . لم يظهر بمظهر الملكي المتطرف ولا المعتدل . بل لم يظهر على تصرفاته اقل ظاهرة تدل على تأثره بالروح الملكية ، وهو على رأس الجمهورية . وأخذت اسود الحرب تزأر من حول سيدها ، حتى قال الكونت « رفنتلو » الناري الروح الملتهب المزاج ، ان موقف هندنبرج غير مفهوم وغير محبوب من متطرفي الوطنيين . كل هذا والاسد الاعظم رابض في مكانه لا يتحرك ، عبوس كما كان ، ثابت كما عرف في ميدان القتال ، لا يفترّ ثغره عن ابتسامة ، ولا ترسل عيناه بنظرة غضب الكل امامه سواء والمانيا فوق الجميع

قال الكونت «وستارب» يوماً للمارشال هندنبرج ان مما يملؤه حزناً ان يراه يضحي بآمال الحزب الملكي الذي يدين هندنبرج بتأييده في الانتخاب لرآسة الجمهورية ، وان يقضي على كل الآمال التي عقدها متطرفو الوطنيين على انتخابه . وظل هندنبرج في عبوسه ، وفي

وصمته ايضاً . وانصرف الكونت من غير ان يحظى من عملاق الحرب بكلمة ولا بنظرة

لم يعر « رئتلو » التفاتاً ولا اقام للكونت « وستارب » وزناً ، ولا حفل بما التف حولهما من رجال الحرب والرجعية . ظل صامتاً حتى قيل له في صراحة انهُ اذا لم يعمل وهو رئيس للجمهورية على اعادة الملكية الى المانيا فانهُ سوف يعتبر اكثر من خائن لوطنهِ ، وللآلاف المؤلفة من الالمانيين الذين اقترعوا له في الانتخاب. ولكن اسد المانيا ان احتمل كل شيء ، ان احتمل عبء الشيخوخة وآلام الهرم وان واجه شك العالم فيهِ وريبتهم في صحة ما اقسم بهِ على ملأ من الدنيا ، فانهُ لا يحتمل الاهانة تنال من كرامتهِ . فلما رمي بالخيانة تحركت فيهِ نخوة العسكرية ، فعاقب الذين رموه بها وفيهم الكونت والبرنس والمركيز ، وفيهم الشريف والوضيع ، كما يعاقب المارشال هندنبرج اصغر ضابط في احقر فرقة من فرقهِ ، لا في ميدان القتال ، بل في ميدان الاستعراض . فلم يكن في ذلك رحيماً ، ولكنهُ كان عظيماً في عقابهِ ، كما كان عظيماً في صمتهِ وتسامحه ، ولكن في كل ما بعد عن كرامتهِ ، وانفصل عن شرفهِ . اذا اقسم هندنبرج ، فقد اقسم . أما وقد اقسم فلا بد له من ان يقدس القسم. لهذا مضى في سبيله يعمل الواجب ويؤيد الحق في منصب لم يسع هو اليهِ مؤيداً من المانيا كلها. لم يقل ان رآسة الجمهورية لي ، بل قيل له هي لك . فقبلها عالماً ما ينطوي وراءها من هموم وآلام . ولكن الواجب كان امامهُ ، والمانيا على حافة الهاوية يهددها الخراب والفقر ، وفرنسا تحتل اغنى بقاعها ، وكل مواردها في يد الاحلاف ، الذين غرروا بالاشتراكيين من اهلها فضربوا الجيش من الخلف في ساعة كان هندنبرج لا يفكر إلاَّ في المقاومة والهجوم ، ان لم يكن في الانتصار ! مضى في سبيله من غير ان يفكر إلاَّ في المانيا ، أما في شخصهِ فلا. لأن هندنبرج ليس فرداً بل هو قطعة من المانيا ، وجزء منها لا يتجزأ

* * *

لم يحدث في اوربا من حدث بعد الحرب ، وكان من أمرهِ ان يجيء الامل في السلام ، بقدر ما يقضي على شبح الحرب ، مثل عهد « لوكارنو » . ولقد عمل على نجاحه ثلاثة رجال من افذاذ هذا العصر . بريان في فرنسا ، واستن تشمبرلين في انكلترا ، وجوستاف شترزمان في المانيا . ولكن الانسان قد يتخيل ان هندنبرج كان يحفر من وراء العهد هوة يقبره فيها . لان الناس لم يستطيعوا ان يدركوا ان آلة الحرب ، يمكن ان ينقلب بين عشية وضحاها من اكبر المؤيدين للروح التي املت على اوربا ، بل وعلى العالم كله ، عهد لوكارنو

لقد خرج هندنبرج من ميدان الحرب ، الى ميدان السلام . واقسم على ان يكون اميناً للجمهورية . اذن فليؤيد رجل المانيا السياسي ، وليعقد عليهِ كل امل في تقرير مصير المانيا . لهذا أيد « شترزمان » في سياستهِ التي دعى فيها الى السلام. والحقيقة انهُ في خلال تلك المعارك

السياسية الكبيرة التي ادارها شترزمان داخل المانيا وخارجها ليعيد حسن الثقة والسلام في اوربا ، تلك المعارك التي اذوت غصن حياته رطباً : كان يعمل معتمداً على الشيخ الكبير والمحارب القديم وهو على رأس الجمهورية الالمانية . لقد رأى بعين السياسي الماهر ان السياسة التي رسمها شترزمان ، خير وسيلة يمكن ان تخدم بها مصالح المانيا الجمهورية . لقد اقتنع هندنبرج بهذا . وما دام قد اقتنع فلا بد من ان ينفذ في ميدان السياسة بنفس الروح التي كان ينفذ بها في ميدان الحرب . رماه « جنكرز » بالخيانة ، فصمت . واتهمه « رفنلو » بمجاراة اوربا ، فصابر وصبر . وقال « وستارب » انهُ شيخ ابله : فما زاد قطوبه ، ولا تحرك في جسمه عرق واحد بحب الدفاع عن نفسه او الانتقام من اعدائه . ولا عجب في ان يقول « شترزمان » بعد ان فتر في سياسته فدخلت المانيا عصبة الامم ، وعقد عهد لوكارنو ، وعادت الثقة بنيات المانيا المسالمة نحو اوربا والعالم ، ان هندنبرج هو الرمز القائم اليوم على تجديد المانيا المنهوكة

لما قال شترزمان قوله هذه كان المارشال في حدود الثمانين من عمره . وبعد عامين مات شترزمان ، الذي ضحى بحياته وأمنه وهدوئه في سبيل الاحتفاظ بالسلام يرفرف على ربوع اوربا ، وسئل هندنبرج وهو في الثانية بعد الثمانين من عمره هل ينوي ان يشيع وفاة السياسي العظيم . قال سائلهُ « سنهيء لك سيارة » . اما المحارب القديم فقال « سأمشي على قدمي » . ومشى عملاق الحرب ليودع رسول السلام الوداع الاخير . اخترق شارع ولهلم حيث كان يعمل شترزمان ليل نهار لنجدة المانيا : وقبعتهُ في يده ، محدقاً بعينيه الحزينتين في النعش الذي يضم الجثمان العزيز الطاهر ، وأمر بحمله على الاعناق . لقد اخرست هذه النعلة مئات من السنة النقاد ، وأسكتت مئات اخرى من الحساد والشامتين . ولانهم عرفوا أخيراً أيةوقفة يقف هندنبرج من الديمقراطية والملوكية معاً

بعد ان شيع هندنبرج نعش شترزمان الى مقره الاخير ، تصرف في حادثتين تصرفاً قضى على كل شك كان يمكن ان يكون باقياً في نفوس بعض المتربصين

كانت احداها هتك الاسرار التي اختفت وراء الدعوة التي دعاها الرجعي « هوجنبرج » ضد مشروع « يونغ » في الاستفتاء العام . فقد اغضب تصرُّف هذا الرجعي رئيس المانيا الجمهورية ، ففضح اسراراً اخرجت من يد هوجنبرج وحزبه آلافاً من الاصوات في الاستفتاء العام ، وزاد هذا العمل الجمهورية الالمانية التي حاولوا ان يلغموا اساسها ثباتاً واحتراماً . ثم وقع هندنبرج الوثيقة التي اعتبر بها مشروع يونغ قانوناً في المانيا ، وشفع هذا بتصريح جاء في نهايته : « لقد قمت بواجبي نحو وطني ، من غير ان افكر في نفسي » . هنا عرف العالم هندنبرج على حقيقته . هنا عرف الناس من هو عملاق الحرب والسلام

[ابن طفيل]